الدرس الرابع / تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

قراءة الطالب: الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد: يقول المؤلف –رحمه الله تعالى–:

"غير أنّ التوحيد له قشران :الأول :أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله، ويسمّى هذا القول توحيدا، وهو مناقض للتثليث الذى تعتقده النصارى، وهذا التوحيد يصدر أيضا من المنافق الذى يخالف سره جهره، والقشر الثاني: ألا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا توحيد عامة الناس، ولُباب التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله تعالى ثم يقطع الالتفات عن الوسائط وأن يعبده سبحانه عبادة يُفرده بها، ولا يعبد غيره"

الشيخ –حفظه الله–: إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أما بعد:

يقول الله ﷻ: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} ، هذه الآية قَسَّمت الناس إلى ثلاثة أصناف، وهذا التقسيم باقٍ إلى يوم الدين، فالناس ثلاثة أصناف لا رابع لهم

القسم الأول: بعد أن ذكر الله الأمانة، وأنّه عرضها على السماوات، والأرض، والجبال فأبيْن أنْ يحمِلنها، فبناءً على هذه الأمانة قَسَّم الله الناس ثلاثة أقسام: من حملها في الظاهر والباطن، ومن ردّها في الظاهر والباطن، ومن حملها في الظاهر دون الباطن، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، الذين ردّوا الأمانة في الظاهر والباطن، وتأمّل معي جيداً قول الله تعالى في القسم الثالث: {وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، وختمها بقوله: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}، فالناس إذن ثلاث أصناف، "المؤمنون": يشمل الفاسق والعاصي، والمؤمنون مع حمل الأمانة، وحمل الأمانة ثقيل، افتتحها الله بقوله: "ويتوب"، واختتمها بقوله: "وكان الله غفوراً رحيمًا"، التوحيد الناس فيه أصناف، ومعرفة الناس بالتوحيد على مراحل والإقدام واجب على المكلف في معرفة التوحيد، والتوحيد يختلف من شخص لشخص، فالعالِم علمه في التوحيد غير القاضي، غير طالب العلم المبتدئ، والتأصيل الصحيح أنّ التوحيد -توحيد العامة-، : من يعرف التوحيد بإجمال، وهذا هو معرفة جُل الناس في التوحيد، ومن يعرف التوحيد بالتفصيل، والتدقيق، والأدلة، وجزئيات المسائل هذا للعلماء، هذا التقسيم أحسن من التقسيم الذي ذكره المؤلف، ونقله عن أبي حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، نقله من إحياء علوم الدين في الجزء الأول صفحة (45 -46)، قال فيها أبوحامد الغزالي: " التوحيد جوهرٌ نفيس له قشران -والكلام يبقى ما سمعتموه من القشر الأول والقشر الثاني إلى قوله في الصفحة التي بعدها- "وهذا التوحيد مقام الصدّيق"، هذا الكلام كله لأبي حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، التوحيد له "قشران" تثنية قشرة، فقشران جمع مثنى مفردها قشرة، والقشرة في أعراف الناس شيء لا قيمة له، ولا فائدة منه إلا أنّه يحفظ الجوهر، ثم قال: "أن تقول بلسانك لا إله إلا الله"، ويسمى هذا القول توحيداً، وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى، هذا

ليس قشور، كلمة لا إله إلا الله هي أوزن عند الله ﷻ من السماوات والأرضين، وهذه الكلمة قامت عليها النصوص، فثبت في الصحيحين أنّ النبي ﷺ قال: "بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله إلى آخره.." في رواية عن مسلم: "على أن يوحِّد الله"، بهذه المقولة تخرجك من الشرك إلى الاسلام، وكان النبي ﷺ لما يبعث القضاة وهم قضاة كان يطلب منهم أن يعلِّموا الناس هذه الكلمة، فهي بداية الخير، وبسببها يدخل المكلف الجنة، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، وثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قاضياً ، أرشده لما بعثه قاضيا قال: "إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب"،أهل الكتاب في اليمن هم اليهود، كان عدد النصارى في اليمن قليل، وأغلب أهل الكتاب في اليمن يهود، فقال النبي ﷺ لمعاذ "إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّي رسول الله فإنْ هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أنّ الله قد فرض عليهم.." ثم ذكر أركان الإسلام، في رواية عجيبة يغفل عنها كثير من الناس، ومفيدة، وأخرجها مسلم في (صحيحه)، وأبو داود في (سننه)، وتكلمنا عليها طويلاً في درسنا لصحيح مسلم، وهذه رواية اسمعها واحفظها وانشرها! يقول النبي ﷺ : "فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنّ الله قد افترض عليهم.." قال العلائي في" فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفتم ذلك.." قال: "الذي لا يوّحد الله لا يعبد الله"، فكل من يقول بأنّ الله ليس واحد أحد هذا لا يعبد الله، قال العلائي في كتابه (الأربعين المغنية): "استدل حُذّاق المتكلمين أنّ من يزعم البداءة في حق الله وهي عقيدة اليهود، أو أنّ الله تعالى ليس بواحد وله معه غيره، وهي عقيدة النصارى، قلب هذا لا يعرف الله تعالى أبدا" ، هذا كلام النبي ﷺ قال: "فاذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنّ الله قد افترض عليهم.." فقولك بلسانك لا إله إلا الله يسمى

هذا القول توحيدا، ولايُجعل هذا قِشرا !، أعجبتني فتوى للعز بن عبد السلام في كتابه (الفتاوى المصرية) في صفحة (71) فتوى رقم: (44)، سُئل في سؤال واحد عدة أسئلة يهمني فتوى كلامه عن القِشر فسُئل: "هل يجوز أن يقول المكلّف إنّ الشرع قِشر ظاهر، وعلم الحقيقة لُبه أم لا يجوز؟" انتبه هنا ! قال: قشر ولُب، وهذا الكلام من آثار وكلام الصوفية، والكلام لأبي حامد الغزالي -رحمه الله-، فاسمع جواب العز بن عبد السلام قال: "لا يجوز التعبير على الشريعة بأنها قِشر، مع كثرة ما فيها من المنافع والخيور، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشر ؟!، وأنّ العلم الملقب بعلم الحقيقة جزءٌ من أجزاء علم الشريعة، ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غبي شقي قليل الأدب، ولو قيل لأحدهم أن كلام شيخك قشور لأنكر ذلك غاية الإنكار، ويطلِق لفظ القشور على الشريعة، وليست الشريعة إلاّ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فيُعزّر هذا الجاهل تعزيراً يليق بمثل هذا الذنب"، هذا كلام العز بن عبد السلام فيمن أطلق على الشريعة قشرا، وعُذْر المؤلف قدمناه في الدرس الأول، تذكرون ما قلنا في الدرس الأول ؟ هو ليس كلامه ، الكلام منقول وهو اضطُّر أن لا يصرح بمن نقل، لما ذكرناه في الدرس الأول فلا داعي للتكرار، قال: "وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارى"، لابد من لفتة !، بعث الله عيسى بالتوحيد، وبعث الأنبياء جميعاً بالتوحيد، وأول من أدخل التثليث في دين النصارى(قسطنطين) ، لما قضى على (الأريسيين)، وفي صحيح البخاري لما بعث النبي ﷺ كتاباً لهرقل قال: "أسلم تسلم وإلا فعليك إثم الأريسيين" والأريسيون قوم أدركوا النبي ﷺ ، وكانوا موحدين، ولكن حاربهم قسطنطين، وأدخل التثليث في دين النصارى، ومشاكل الإنجيل التي بين أيدينا قِسم كبير منها الترجمة، عندما تُرجم الإنجيل للعربية ساغ للمترجمين بعض الألفاظ فحملوها على تعدد الآلهة، والكلام في هذا الباب طويل، وعندي دراسةٌ ومعرفةٌ قوية بالعلامة الشيخ محمد تقي الدين

الهلالي، كان يتقن تسع لغات، ومنها السريانية، وعنّت له فكرة طبّقها وطبع رسالة بديعة، وكان قد تأخر في معرفة اللغة الإنجليزية، وكان مُدرساً للأدب العربي واللغة العربية في الهند، فأراد أن يتعلم الإنجليزية، فعاونه بعض الأساتذة الذين يدرسون معه أن يتعلم الإنجليزية، فلمّا أخذ الدرس الأول رأى أنّ تعلّم الإنجليزية من هذا الطريق لا يصلح، ويرى أنّ اللغة الإنجليزية ينبغي أن يُدرِّسها أصحابها، ويعتقد نظرية دَندنَ عليها في كتبه لأحد الألمان "أن اللغة لا يُعلِّمها إلا أصاحبها، وما ينبغي تكون واسطة في تعلم اللغة إلا اللغة نفسها"، ما ينبغي أن يكون في المجلس كلام إلا الإنجليزية، إذا تكلمت العربي فسدت معرفتك الصحيحة شيئ

للغة الإنجليزية، قال: فبحثت عمن يُدرسني، فوجدت في الجريدة أنّ قِسِّيسا أعلن عن تعليم اللغة الإنجليزية، اتصلت به فلما رآني استغرب، -سمته وشكله شيخ-، قال أنا أُعلِّم اللغة الإنجليزية بشرط أن تدرس الإنجيل، فقال له: أنا ما تعلَّمت اللغة الإنجليزية إلا من أجل أن أدرس الإنجيل، فقرأ الأناجيل بلغات متعددة، بالفرنسية، الإنجليزية، والسريانية اللغة الأم، وكان يدرّسِه أستاذ ألماني وهو الذي أشرف على طبع العهد الجديد والعهد القديم، الذي بين يديّ النصارى الآن، ولما وُجدت مخطوطات كهف قَمران، تعرفون أين هي قمران؟!، في الأردن الأغوار، راعي أردني وجد مخطوطات قديمة في كهف ووجد أن النسخ الخطية الموجودة للتوراة والإنجيل في هذا الكهف أقدم نسخ الدنيا، وشارك هذا الألماني في معرض في إيطاليا وبقيت المخطوطات في إيطاليا للآن، والطليان عملوا عليها حكر لا أحد ينظر إليها، وله دراسة طويلة منشورة عنها بالألمانية، الشاهد أنّ الهلالي لما قرأ الأناجيل ألّف كتاباً بديعاً صغيراً سمّاه (البراهين الإنجيلية)، على أن عيسى عليه السلام ليس له حظ من الربوبية، وهو عبدٌ ، فالناظر في الإنجيل يجد بقايا توحيد تدل على أن عيسى

عليه السلام ليس رباً ولا إلهاً، وإنما هو عبد من عباد الله، فهذا الذي تعتقده النصارى عقيدة دخيلة عليهم، وليست هي عقيدة عيسى، ولا التي جاء بها الإنجيل.

قال: "وهذا التوحيد يصدر أيضا من المنافق يخالف سره جهره"، هذا المذكور في الآية: {لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ}، والله قال: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، "نشهد إنك لرسول الله"، لا إله إلا الله و رسول الله كلمتان مقترنتان، لا تغني أحداهما عن الأخرى، قال الله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، فكانوا يُظهرون لرسول الله ﷺ شيء، ويبطنون شيئا، يشهدون أنه رسول الله ويبطنون شيئا آخر، وهكذا كانوا يفعلون بلا إله إلا الله، يُظهرون لا إله إلا الله، ويبطنون شيئ ، لو قيل: إن هذا الجزء من الكلام الذي لا ينفع صاحبه، والذي نطق به لسانه، وخالف ظاهره باطنه لو قيل أنه قشر لكان مستساغ، فلا إله إلا الله ليست قولاً باللسان، لا إله إلا الله كالإيمان لابد من اعتقاد الجنان والنطق باللسان، والعمل بالأركان، وهذا هو لُباب التوحيد، هذا القشر الأول، القشر الثاني: ألا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا هو توحيد عامّة الناس، هذا فيه نظر أيضا توحيد عامة الناس ليس قشراً، عامة الناس توحيدهم ينفعهم بين الله عز وجل ، لكن توحيد عامة المسلمين توحيد فيه إجمال وليس توحيداً فيه تفصيل، والإنسان كلما ازداد علمه من ربه ازدادت خشيته منه، ولذا من فوائد معرفة علم التوحيد أن هنالك لُباب لعلم التوحيد، وهذا اللُباب هو الذي نقله المصنف من كلام الغزالي فقال: "ولُباب التوحيد" التوحيد المفصل، التوحيد لا يؤخذ من أحد، التوحيد يؤخذ من قال الله قال رسول الله ﷺ، وما عليه الصحابة بما زكّاهم النبي ﷺ ، ولُباب التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله، أن يكون قد حقّق التوكل على الله إيش التوكل؟ التوكل له ركنان الركن الأول: الاعتماد

على الله، والركن الثاني: الثقة بالله، فإن كان قلبك قد توجَّه إلى الله واستعنت به، ثم وثقت بهذه الاستعانة حصّلت التوكل، فيكون الاعتماد مع الثقة، الاعتماد على الله والثقة بالله إن اجتمعا حصل ذلك التوكل، قال: "أن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره"، هذا هو توحيد الألوهية، قلت لكم ما معنى التوحيد في الدرس الماضي؟ معنى التوحيد: لا يشركه تعالى بشيء فيما هو من خصائصه، فهو المعبود، فلا تشرك غير الله بالعبادة، والرزق والاستعانة، والأسماء، والصفات التي ذكرها الله تعالى في كتابه.

يقابل القشر اللُباب، لبُاب التوحيد يشمل :كمال التوحيد الواجب، وكمال التوحيد المستحب، كمال التوحيد الواجب: ألا تترك فرضاً، وأن لا تفعل حراماً، وأن تتوب إلى الله تعالى من المحرمات، كمال التوحيد المستحب: أن تفعل المندوبات، والمسنونات، وأن تتوب إلى الله من المكروهات، التوبة ليست فقط من ترك فعل الواجب، ولا من الابتعاد عن الحرام، التوبة في شرعنا تشمل أن تفعل المسنون الذي تركته، وأن تترك المكروه الذي فعلته، هذا كله يشمله مقام التوبة، فالتوبة أوسع من مافي أذهان الناس، فلُباب التوحيد يتفاوت فيه الناس، والتوحيد يزيد كما تعلمون بالطاعة، وينقص بالمعصية والغفلة، فلُباب التوحيد أن تمتثل قول الله ﷻ : {أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ}، لما كانت الاستقامة صعبة أمر الله بالاستغفار، "واستغفروه"، كذلك لما حمّل الله الإنسان أمانة كانت الأمانة صعبة، فقال: "ويتوب"، "كان الله غفورا رحيما"، فأصل التوحيد إن حصل أدخل صاحبه الجنة، أما من فعل كمال التوحيد الواجب من المكلفين يشمله الوعد الذي لا ينخرم ،وإن خلَّط الإنسان وعنده أصل التوحيد، فهذا تحت الوعيد إن شاء غفر الله له، وإن شاء عذّبه، فهنالك أصل التوحيد وهنالك كمال التوحيد الواجب، وهنالك كمال التوحيد المستحب، هذا هو لُباب التوحيد،

فالعمل مع التوحيد لا ينفصلان، {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، الاقتران هذا هو لُباب التوحيد، وهذا هو توحيد العارفين، والصادقين، وتوحيد النبيّين قبلهم، وسبيل معرفة التوحيد قائم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قراءة الطالب : قال المصنف -رحمه الله تعالى-: "ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}، وإذا تأمّلت عرفت أنّ عابد الصنم لم يعبده، إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه، فيتّبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبَّر عنها بالهوى، ويَخرج عن هذا توحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكُلّ من الله كيف يسخط على غيره، أو يأمل سواه، وهذا التوحيد مقام الصدّيقين".

هنا ينتهي كلام أبي حامد الغزالي، ويرى أنّ التوحيد له قشران كما سبق، هذا الكلام مهم جداً وهذا الكلام له صلة وثيقة بأشياء سبقت، وبأشياء ستأتي أيضا، وهو سِر أو من أسرار انفتاح توحيد الربوبية على توحيد الألوهية عند المشركين، ، وهذه الأسرار نتلمَّسها ونحن نقرأ كلام المقريزي -رحمه الله-، قلنا إن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وأنّ أصول توحيد الربوبية كان موجوداً عند المشركين، ولكن لم يثمر لتوحيد الألوهية، والعلاقة بينهما وثيقة، والارتباط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية شديد كارتباط الذات بالصفات، وارتباط المعلوم بالعلم، وارتباط المقدور بالقدرة، وارتباط الأصوات بالسمع، وارتباط الإحسان بالرحمة، وارتباط العطاء بالجود، فالارتباط بينهما وثيق لكن لماذا لم تثمر؟! كفار قريش اتبعوا أهواءهم، وآمنوا بأن الله الرازق، وأن الله الخالق، آمنوا بتوحيد الربوبية، ولكن لما جاءت من الله ﷻ : { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} فاتبعوا

الأهواء، قال: "ويخرج عن هذا التوحيد –المراد توحيد الألوهية– اتباع الهوى"، فالهوى يخالف الحق، بل يخالف أمر الله ﷻ، واتباع الهوى بعضه شرك خالص، وبعضه معصية، أصحاب البدع يتّبعون الهوى وهم لا ليسوا بكفار، كثير من أصحاب البدع لو سألته وفحصت حاله وسررته لوجدته هوى، ليس عندهم دليل من الشرع، لكن هؤلاء ما وحدوا توحيد الألوهية، قال: "ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه– خالف أمر الله– فقد اتخذ هواه معبوده قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}، تأمل معي الآية، "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه" أو اتخذ هواه إلهه؟ وما الفرق بينهما؟ من اتخذ هواه إلهه وكان هواه فيما يحب الله ويرضى هذا محمود، "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" معنى الحديث فيه ضعف وانقطاع، لكن " أفرأيت من اتخذ هواه إلهه" هو محمود بالجملة، أما " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه" فيجعل الهوى إله، وجدْت عبارة لطيفة لتاج الدين السبكي في كتابه (الترشيح على التوشيح) وطبع قريبا، كتاب شيّق، حقيقة ماصبرت حتى قرأت الكتاب، وهو أربع مجلدات، فوجدت فيه عبارة جميلة يقول: "قال لي شيخي– لما يقول شيخي يريد والده ووالده تقي الدين السبكي– وقد انتهى في التلاوة إلى سورة الفرقان –ولد يتكلم عن أبيه – فانتهى إلى قوله: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}، يقول سألني شيخي أبو الحسن الباجي لمَ لم يقل اتخذ هواه إلهه ؟ قال: فما زلت مفكراً في الجواب منذ أربعين سنة وأنا أفكر اتخذ إلهه هواه ، واتخذ هواه إلهه، حتى تَلَوت ما قبلها: {إِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، "لولا أن صبرنا عليها"، الصبر هو التعبير الشرعي سبحان الله ! الكفار يستخدمون القرآن في ترويج الكفر، النساء في قصة يوسف لما كان يوسف عليه السلام عفيفاً قالوا عنه: "إن هُو إلاّ مَلك" المِلك عبارة شرعية، الملك لا تُعرف في

العربية إلاّ من الشرع من الأديان السابقة، وكذلك هؤلاء يقولون في قوله تعالى: {إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا}، يعني هذا يتضمن أنهم على هدى من ربهم، فالله لما نقض هذا الادعاء قال: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}، الهوى هو الذي جعلهم ينطلقون، الهوى هوان، وكل من اتخذ هواه إلها من دون الله، وكل من ابتدع في دين الله له من الهوان ما الله به عليم، وهذا أمر تَتبَّعهُ باستقراء وتفصيل الإمام الشاطبي في كتابه (الاعتصام)، وبيّن أنّ صاحب السنة يوضَع له القبول، وله نصيب من قول الله ﷻ : {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}، وأنّ صاحب البدعة مذموم، وله نصيب من قول الله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، وأنّ صاحب البدعة لا ينفك عنه الهوان، وذكر ما يدل على ذلك بالاستقراء والتأريخ يؤكد ذلك.

نُودي في فترة من الفترات أنّ من اعتقد معتقد ابن تيمية حلّ دمه، وبقي شيخ الإسلام يشيد به المخالف، والمسلم، والكافر، وتُدرّس آثاره، وكتبه في الجامعات العربية، والجامعات الأجنبية ومات صاحب تلك المقولة ولا يعرفه أحد، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى لا تختلف أبدا، فقضية " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه" أن يكون اتخذ إلهه فجعله هواه، والذي يجعل إلهه هواه، غير من يجعل هواه إلهه، فغرض هؤلاء الكفار تجميع ما أُوتوا من قوة في الاحتجاج على أن الهوى هو الأصل وكل شيء تابع للهوى، أنظر لسورة الأنعام تجد فيها أمرين: صراع النبوة، وتجد فيها الأنعام التي أحلها الله، والتحريم الذي ابتدعه المشركون في الأنعام، ولما كانوا يُحاججون يقولون: الله أمرنا بهذا، فالتوحيد لابدّ لصاحبه أن يكون قد آمن بمصدر التوحيد، الذي هو قال الله، قال رسول الله ﷺ، فمن ترك التوحيد في العبادات –الاتباع في العبادات– وما لجأ إلى قال الله، قال رسول الله ﷺ، ما أسهل أن يدخل عليه الشرك، فالشرك حصيلة للانحراف عن قال الله، قال رسول الله ﷺ ،فالتهوين من قال الله قال رسول الله ﷺ وإشغال الناس بأقوال أصحاب المذاهب هو هدم

للدين شئنا أم أبينا، الدين قال الله، قال رسول اللهﷺ، علماؤنا على العين والرأس نحترمهم لكن الآن الكفار يتدخلون في ديننا لماذا ؟ حتى يصلون بنا إلى أن نتخذ ما هو مألوف من بدع وإحداثات وفساد، فالسلامة في أن لا يؤخذ إلا من الله ومن رسوله ﷺ ، وما عليه الصحابة وما دون ذلك فليس هذا توحيداً، فالذي يقرره المقريزي، أنّ عبّاد الأصنام يعتقدون أنها لا تخلق، وأنها لا ترزق، ولا تحيي،ولا تريد، وإنما اتخذوا هذه الأصنام تباعاً للهوى، وجعلوها وسائط بينهم وبين الله، فهذا هو سر انتشار الشرك، وعدم الإيمان بالنبي ﷺ .

قال المصنف: " وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبَّر عنها بالهوى " الله قال: {قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنا}، وقال: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}، فهؤلاء ليس عندهم برهان عقلي، ولا سمعي، ولا شرعي، هو هوى، لا برهان بالعقل، ولا برهان بالسمع، ولا أدلة شرعية، إنما هو هوى، الإنسان المؤمن في صلب صلاته وعبادته مع ربه يردد أذكاراً في أثنائها، وعند الخروج منها لو أنك تأملتها، لعلمت الصلة الوثيقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، قولنا: "لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد- العظمة- منك الجد "، كان الصحابة يقولون إذا رأينا رجلا قرأ جدّ في أعيننا -عَظُم- بأعيننا، "ولا ينفع ذا الجد منك الجد" منك يا رب العظمة، "لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد"، هذا هو لُباب التوحيد، أنْ تربط المقدمات التي تُقِرّ بها الفطرة، ثم تربطها و توظّفها في أثناء طاعتك وعبادتك لربك ﷻ.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله تعالى- "ولا ريب أنّ توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنّه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح

العالم كله، وأنّما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}، فلمّا سَووا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين كما قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}:

الشيخ –حفظه الله–: "وهم بربهم يعدلون" أي يسوّون غيره به، هذا أصل كررناه وسيكرره أيضا المصنف، بأنّ توحيد الربوبية أصوله كانت معروفة عند المشركين، قال: "ولا ريب أنّ توحيد الربوبية لم ينكره المشركون"، الكفر سمي كفراً لتغطيتة، ولا ينكر توحيد الربوبية إلا شُذَّاذ، لا أكتمكم سرا، نسمع بعض العلماء، علماء التجربة، الأجنة ، البحار، يتكلم ثلاث وأربع ساعات عن أنّ الله حق، وهو كافر وهذا الكلام لا ينفع، هذا علاج لمن به ذلك الداء العضال، وهو الإلحاد، والذي روّج للإلحاد هذه الأيام هي الشهوة، الشهوة وتدٌ كبير تدق صرح الإلحاد حتى يطفئ صاحب الشهوة المجنونة، التي لا يشبع منها، ولا سيما مع الشذوذ الموجود في ديار الغرب، حاله كحال العطشان كلّما شرب الماء ازداد عطشا، وكالجائع كلما أكل طعاماً ازداد جوعاً، الانحراف بالمثلية –الانحراف الجنسي– يجعل صاحبه لا يشبع أبدا، فكيف يريد أن يطفئ واعظ الله الذي في قلبه بالإلحاد، فالإلحاد والمثلية سبب رواج الشهوات ، والمثلية غير مقبولة لاعند محمد ﷺ ولا عند عيسى عليه السلام ، ولا عند موسى عليه السلام ولا عند ربهم سبحانه وتعالى، وهو الأهم، ولا التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن، فهذه المثلية لا تتوافق إلا مع الإلحاد، فهي وتد يدق ويثبت الشهوة المحرمة الشاذة، فالذين يعملون على المثلية لا يحاربون إلا الله، فالله عز وجل هو الذي يتولاهم.

قال: "لاريب أنّ توحيد الربوبية لا يقره المشركون"، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}، {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}، فالأدلة كثيرة جدا على أنّ كفار قريش يؤمنون بأنّ الله خالق، وأنّ الله ﷻ الرازق، فأقروا بذلك، قال: :"إنّما أنكروا توحيد الألوهية والمحبة"، لذلك إخواني ذكرت لكم في الدرس الماضي، وأفصِّل مرة أخرى، قال أهل العلم أهل التوحيد: العبادة كالطير، جسم الطير المحبة والطير لا يطير إلا بجناحين، جناح الرَّجاء، وجناح الخوف، العبادة التي يحبها الله ويرضاها محبة مثل جسم الطير، ورجاء مثل جناح الطير، وخوف مثل الجناح الآخر، والعبادة التي يتكلفها المسلم لابد أن تكون مجموعة من هذه الأمور الثلاثة، فمن عبدَ الله بالرّجاء فهو مرجئ، ومن عبدَ الله بالخوف فهو حروري -خارجي- ومن عبدَ الله بالمحبة فقط، فهو زنديق، لو أن رجلا يحب زوجته حباً جما، وتعلم زوجته ما لها من مكانة عنده، فهي لا تطيع له أمراً وتتذرع بالمحبة، العجب من اليهود والنصارى أنّهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، فإذا كنت ابن لله وحبيبه، فالله لا يعذبه، هذه محبة!!، هذه زندقة، عبادة الله فقط بالمحبة زندقة، وعبادة الله من خوف مذهب الخوارج، وعبادة الله ﷻ بالرجاء فقط حال كثير من الناس بقولهم "الله غفور رحيم" ينسى أنّ الله شديد العقاب، لا يذكر إلى أنّ الله غفور رحيم هذا إرجاء، الصواب أنّ تعبد الله بالأمور الثلاثة، وعلى رأس هذه الأمور المحبة، لذا قال المقريزي: "توحيد الألوهية والمحبة" من انطلق في عبادته لربه بالمحبة فإنّه لا ينقطع، ومن انطلق في عبادته لربه طمعاً بثواب، فإنّه يتعب، أو استجابة لترغيب فإنّه يتعب، وأما المحبة فصاحبها لا ينقطع، صاحبها يثبت، وهذا الذي كان عليه رسول الله ﷺ ولذا قال الله لنبيه: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ}، لمن يُقال "فإذا فرغت فانصب" لمن عبدَ الله

بالمحبة ،من عبد الله بالمحبة لا ينقطع عن عبادته أبدا، لكن من عبد الله رجاء أو خوفا ينقطع، لكن لابد مع المحبة الخوف والرجاء، ثلاثة أشياء، قال: "ولاريب أنّ توحيد الربوبية لم يقره المشركون بل أقروا بأنّه ﷻ وحده خالقهم، وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله -هذا توحيد ربوبية- وإنّما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}"، الذين آمنوا أحبوا الله وحده، والمؤمن حبه لكل شيء نابع من حب الله تعالى له، فلا يحب إلاّ ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض الله، ويعظّم ما عظّم الله، ويحقِّر ما حقَّر الله، فالمؤمن حبّه لله وحبّ الله هو الأصل وهو مهيمن على كل حب في قلبه، فإنّ أذن الله ﷻ بهذا الحب أحبّه، وإنْ لم يأذن بهذا الحب كرهه وسخطه، فالحب عند المؤمن مع ربه ﷻ هو الأساس، ما هي العبودية؟ اسم جامع لكل الأقوال والأفعال التي يحبها الله تعالى ويرضاها-الأعمال والأفعال الظاهرة والباطنه- ، حقيقة العبادة كمال الحب مع كمال الذل، قلبك يمتلئ حباً ويمتلئ ذلاً في مقام عز وأنْت بين يديه ﷻ ، هذا النوع من الحب -كمال الذل مع كمال المحبة- هذه خاصة بالله، لا تصلح للأنبياء، ولا لغيره، اسمع ماذا يقول النبي ﷺ في صحيح مسلم: "تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ" مثل مانقول في العامية: "إذا وقع الله لا يردّه" هذا معنى "وإذا شيك فلا انتقش"، ورحم الله عبداً إذا كان في المقدمة كان في المقدمة وإذا كان في السقاية كان السقاية، فالشاهد أنّ العبادة كمال الذل وكمال المحبة، وهذه العبادة بهذا المعنى خاصة بالله ﷻ، لا تصلح للأنبياء.

قال: "فلمّا سَووا غيره به في هذا التوحيد – توحيد الألوهية وتوحيد المحبة-" ، هل يمكن أن تكون موحداً توحيد ربوبية وأنت مؤمن به ؟ نعم، هل يمكن أن يكون توحيد الربوبية مع وجود

الشرك؟ نعم ، أما توحيد الألوهية مع وجود الشرك ؟ لا يمكن، فالربوبية كما قال الله ﷻ: بأنّه قد يجتمع توحيد الربوبية مع الشرك، قال الله تعالى في سورة يوسف: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ}، يؤمن وهو مشرك ، إيمان ربوبية فأثبت الله الإيمان مع توحيد الربوبية، الإيمان بالربوبية مع وجود الشرك، هل يمكن أن يجتمع توحيد الألوهية مع الشرك؟ لا يمكن، وهذا هو السر، وجود توحيد الربوبية عند كفار قريش دون توحيد الألوهية، الشرك مع الربوبية قد يجتمعان، وتوحيد الألوهية مع المحبة مع الشرك نقيضان، لا يمكن أن يجتمعا أبدا، ولذا قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، يعدلون أي: يعدلون الله بغيره، يسوون غيره به، ولذا الذين يؤمنون بالأصنام كانوا يذبحون لها، ويطوفون بها ،وينذرون إليها، ويتقربون لها، ويعبدونها، بل قد يسجدون، واللهِ ! رأيت بعيني شاب يطوف حول قبر الحسين –المزعوم– في القاهرة في مسجده، يسجد، ويركع، ويصلي ويفترش الأرض!! هذه القبلة ! قد صليت لله صلي للقبلة، فالذين يشركون شرك الألوهية مع إيمانهم بأنّ الله هو الرازق، يعدلون غير الله به، فيصرفون العبادات، والطواف، والنُّذر، والصلاة، والسجود يصرفونها لغير الله، توحيد الربوبية مع الشرك يجتمعان، وتوحيد الألوهية مع الشرك لا يجتمعان، نكتفي بهذا القدر لنكمل إن شاء الله تعالى في درسنا القادم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد.